تحليل نص أدبي
(قصيدة شعرية لابن زيدون)*

د. جمعة حسين المفجرّ ــ كلية التربية الزاوية ــ جامعة الزاوية

توطئة:

إن دراسة أي نص أدبي دراسة وافية تعتمد اعتماداً كاملاً على الثقافة الخاصة للقارئ، وفي هذا المجال ظهرت مدارس عدة في دراسة الأدب وتحليله، ومن هذه المدارس: الرومانسية، والواقعية، والاجتماعية، والنفسية، ومدارس أخرى، وفي هذه الدراسة التطبيقية لهذا النص من قصيدة للشاعر الأندلسي ابن زيدون، وموضوعها الغزل، والذي اشتهر به ابن زيدون مع محبوبته ولادة بنت المستكفى.

نحاول أن نجمع بين أكثر من نظرية، ولكنها تعتمد بشكل خاص على الدراسة الذوقية، القائمة على الفهم الخاص، وبإمكان من أراد الاستزادة في المذاهب النقدية الأخرى، العودة إلى دراسات كثيرة منها: الاجتماعية، والبنيوية، والألسنية، وغيرها، ولكننا هنا ندرس هذا النص كونه نموذجاً فقط لا غير.

يقول ابن زيدون (من بحر المتقارب):

1- لئِنْ قصرّ اليأسُ منكِ الأملْ وحالَ تجنّيكِ دونَ الحيلْ
2- وناجاكِ بالإفك فيَّ الحسود فأعطيته جهرةَ ما سألْ
3- وراقكِ سحرُ العدا المفترى وغركِ زورُهمُ المفتعلْ
4- وأقبلتهم فيّ وجهَ القبولِ وقابلهم بشركِ المقتبلْ
5- فإن ذمامَ الهوى لم أزلْ أبقيه حفظاً كما لم أزلْ
6- فديتك إن تعجلي بالجفا فقد يهب الريثَ بعض العجلْ
7- علام اطبتك دواعي القلى؟ وفيمَ ثنتك نواهي العذلْ؟
8- ألم ألزم الصبر كيما أخفَّ؟ ألم أكثر الهجرَ كي لا أملْ؟
9- ألم أرضى منكِ بغير الرضى؟ وأبدي السرورَ بما لم أنلْ؟
10- ألم أغتفر موبقات الذنوب عمداً أتيت بها أم زللْ؟
11- وما ساء ظني في أن يُسيء بيّ الفِعل حُسنُكِ حتى فعلْ
12- على حين أصبحت حسب الضمّير ولم تبغ منكِ الأماني بدَلْ
13- وصانّك مني وفيّ أبىّ لعلْق العَلاقةِ أن يُبتْذلْ

14 سعيتِ لتكرير عهدٍ صفا وحاولتِ نقصَ ودادٍ كمَلْ
15- فما عوفيتْ مقتىّ من أذىّ ولا أعفيتِ ثقتي من خجلْ
16- ومهما هززتُ إليكِ العتابَ ظاهرتِ بين ضروب العللْ
17- كأنك ناظرت أهل الكلام وأوتيّتِ فهماً بعلم الجدَلْ
18- ولو شئتِ راجعتِ حُرَّ الفعالِ وعُدتِ لتلك السجايا الأوّلْ
19- فلم يكُ حظي منكِ الأخسَّ ولاعُدَّ سهمي فيك الأقلْ
20- عليك السلامُ سلامَ الوداع وداعَ الهوى مات قبل الأجلْ
21- وما باختيار تسليتُ عنكِ ولكننى مكرهٌ لا بطلْ
22- ولم يدرِ قلبي كيف النزوع إلى أن رأى سيرةَ فامتثلْ
23- وليت الذي قاد عفواً إليكِ أبىَّ الهوى في عنانِ الغَزَلْ
24- يحيل عذوبة ذاكَ المّى ويشفى من السقمِ تلكَ المُقلْ[1]

هذه هي القصيدة كاملة، وإنما ذكرناها كاملة لكي تتضح الصورة ولا يختل السياق، والمعنى، والهدف، إذ لو اقتصرنا على بعض الأبيات لما وضحت الفكرة، ولما تجلىَّ المعنى.

شرح بعض المفردات التي وردت في القصيدة حسب رقم كل بيت من(1) إلى (24):

1- تجنيكَ: من تجنى عليه، رماه بإثم لم يفعله.
2- ناجاكَ: أسرّ لك، الإفك، الكذب.
3- راقك: أعجبك، المفترى: المختلق المصطنع، زورهم: كذبهم.
4- بشرك: وجهك الطليق.
5- الذمام: العهد.
6- الجفا: البعد والقطيعة، الريث: ضد العجلة.
7- أطبتك: أعجبتك، القلى: البغض، العذل: اللوم.
8- أخف: يذهب حلمي وألزم الطيش.
10- الموبقات: المهلكات، زلل: خطأ.
12- الأماني: الأحلام.
13- صانك: حفظك، العلق: النفيس من كل شيء.
14- تكدير: جعله غير صافٍ.
15- عوفيت: خلصت، أعفيت: خلت.
16- ظاهرت: جمعت، ضروب: أنواع، العلل: المعاذير.

17- أهل الكلام: علماء الكلام، وهو علم التوحيد.
18- السجايا: جمع سجية، وهي الطبيعة.
19- الأخس: القليل، سهمي: حظي ونصيبي.
20- الأجل: الغاية.
21- تسليت عنه: تلهيت.
22- النزوع: الشوق والحنين.
24- اللمى: سمرة في الشفتين، المقل: العيون.[2]

الأفكار العامة في للقصيدة:

يتحدث الشاعر من البيت (1-4) في اليأس من المحبوبة، وكلام العذَّال والوشاة، والكذابين، وتصديق محبوبته لكلامهم، والبعد عنه، والإعراض بوجهها عن حبيبها.

وفي الأبيات (5-6) يتحدث الشاعر عن حفظه لودها، والوفاء بعهده لها، رغم مابدا منها من الصد، والامتناع، وتصديقها للوشاة والكذابين.

وفي البيت (7) يتحدث الشاعر عن تمسك محبوبته بالبعد، واللوم.

وفي الأبيات (8-10) يتساءل الشاعر بتعجب، ويثبت الشاعر بهذا الصبر والعناد اللذين لاقاهما من محبوبته.

وفي الأبيات (11-13) يتحدث الشاعر عن الوفاء لمحبوبته، وأنه يحسن الظن بها مهما وقع، وحصل، ورغم كيد الكائدين.

وفي الأبيات (14-18) يصف الشاعر محبوبته بأنها خانت العهد الذي بينهما، وعدم وفائها بالعهد، رغم أنه يقابلها بالوفاء ويصفها بأنها مراوغة بكلامها، وتسويغ المواقف.

والأبيات (19-24) يتحدث الشاعر عن كيفية العودة إلى المحبوبة، وتناسي ما بدر، وصدر منها، لأن قلبه لا يطاوعه في فراقها، والبعد عنها[3].

وقد يتساءل القارئ لماذا لم نشرح الأبيات شرحاً أدبياً؟ أقول: إننا قمنا بشرح المفردات في القصيدة، وأوضحنا الأفكار العامة التي وردت فيها حسب الأبيات الشعرية وعددها، وفي هذا كفاية، ومبرر، وذلك لوضوح الصورة، والمعنى عند المتلقي.

أسلوب الشاعر في قصيدته:

ينبغي للدارس لأسلوب أي شاعر أو أديب، شعراً، أو نثراً، أن يلتفت إلى الألفاظ، والتراكيب.

فالألفاظ، تتسم بالسهولة، والبساطة، والوضوح، فلا تعقيد فيها، ولا غرابة، ولا تكلف، فالشاعر يتحدث عن موضوع وجداني عاطفي، يجب أن يبتعد فيه عن الألفاظ الوعرة، الحوشية، فالموقف يتطلب ألفاظاً حلوة رقيقة، عذبة، تتسلل إلى قلب المحبوب بسهولة، ويسر.

والألفاظ التي وردت في القصيدة، صعبة ووعرة هي قليلة جداً إن لم تكن نادرة.

أما التراكيب، فكانت تتصف بالطول، فالجملة قد تكون شطراً كاملاً في البيت، ويضطر ذلك الشاعر إلى ربط الجمل باستعمال حروف الجر والعطف، وهمزة الاستفهام.

وغالب الأبيات أسلوبها خبري، أما الجمل الإنشائية فكانت موزعة، ومتفرقة في بعض القصيدة تمثلت في: الاستفهام، والتمنى وغيرهما.

والألفاظ كانت مناسبة وموائمة للمعاني، وكأنها فصلت على مقياس المعاني، فالشاعر كان موفقاً في اختيار ألفاظه، كما كان موفقاً في اختيار معانيه، وصوره(4).

العاطفة :

القصيدة من أولها إلى آخرها تسير على وتيرة واحدة، وتسيطر عليها عاطفة ذاتية وجدانية، أهم صفاتها : الصدق، العمق، القوة، وحدة النسيج، الاستمرارية.

الحب والعشق، والوله، واللوعة، والحرقة، والعذاب، والألم، والمرارة، واليأس والوصل، والفراغ، والشقاء، والبعد، والتجافي، كلها ألفاظ وردت في القصيدة لتخدم المعنى، والفكرة التي جاءت من أجلها. فشعر ابن زيدون ينبض بدقات متتابعة، متناسقة، متناغمة، تعبر عن مشاعر متنوعة، وأحاسيس، ومشاعر مختلفة، كان الشاعر موفَّقاً في صياغتها وتنسيقها، وبثها في ثنايا قصيدته.

الموسيقى :

إن العلاقة بين أحاسيس الشاعر، وأوزان الشعر، والبحر الذي اختاره في هذه القصيدة تبدو واضحة بحيث عزف الشاعر أبياته على أوتار تنبعث منها ألحان حزينة ذات جرس موسيقي مفعم بالحياة، واختار الشاعر بحر المتقارب، وهو من البحور العذبة الرقيقة، وروي اللام الذي أختاره الشاعر وقيده، لعله يريد أن يثبت من خلاله مشاعره، وأحاسيسه التي تخالج تلك النفس المقيدة بسلاسل الهجر والحرمان.

"جاءت القصيدة قطعة موسيقية مرصوفة بعناية عازف ماهر يجيد النغمات والتنقل بين نغمة وأخرى، فتارة يجد هذه مناسبة، وتارة تلك، ومهارته وقدرته تجلت في اختيار الأرشق"[5].

ليس من الصعب أن يختار الشاعر موسيقاه في أي قصيدة يبدعها، ولكن الصعوبة تتمثل دائماً في الروح والشفافية والأحاسيس التي تتسق مع هذه الموسيقا التي اختارها، والشاعر في هذه القصيدة كان موفقاً إلى حد كبير سواء بالكلمة أو بموقع هذه الكلمة، كذلك التقسيم المتكافئ في الجمل بين شطري كل بيت.

"إن البناء الفني للشعر لا يقوم على اللفظ وحده، ولا على المعنى أو الفكرة لوحدها، بل هو تلاحم ونسيج محكم بينهما، بالإضافة إلى ما يتميز به الشعر من الأوزان والقوافي. والبحور الشعرية عبارة عن تكرار تفعيلات معينة وفق نسق معين لكل بحر"[6].

وابن زيدون يؤكد باختياره موسيقاه في هذه القصيدة أن الموسيقى مدروسة بشكل جيد، وتتناسب مع موضوعه وأهمية هذا الموضوع له، يدل ذلك كله على ذوق مرهف، تخدم فيه الألفاظ المعاني التي أرادها الشاعر، فتأتي الألفاظ سهلة بسيطة عذبة غير متكلفة، بحيث تؤدي الهدف والغاية التي جاءت من أجلها دون زيادة أو نقصان.

وبوجه عام فإن الموسيقا التي اعتمد عليها الشاعر جاءت متناسقة متناغمة ألفاظاً ونبرة ومخرجاً وجناساً، وحديثنا هنا عن الموسيقا الداخلية والتي تنشأ عن تتابع الحروف في اللفظ أو التركيب وفق نسق محدد بعينه.

فالتكرار بأنواعه: حرفاً، وكلمة، وعبارة، وجملة، والجناس بنوعيه تاماً وناقصاً.

الخيال:

عادةً ما يحلق الشاعر بجناحين من الخيال بعيداً، تاركاً العالم المادي الذي يعيش فيه، إلا أنه يمنحنا الإذن لنسرح معه في هذا الخيال من خلال أشعاره، وصوره التي يبثها في قصائده.

وإذا قالوا قديماً: أجمل الشعر أكذبه، فأنا أقول: أجمل الشعر ما كان للخيال النصيب الأكبر فيه.

العلاقة بين الخيال والبلاغة علاقة قوية جداً، والرابط بينهما متين جداً، فالتشبيه، والاستعارة، والكناية، والسجع، والتصريع، والتورية، ورد العجز على الصدر، من أهم الأدوات التي يجب أن يعتمد عليها الشاعر في بث صوره للتأثير في المتلقي، ويصل من خلالها إلى المعنى والهدف المراد.

حفل النص الذي بين أيدينا بكثير من الصور البلاغية، وخاصة الاستعارة ومن أمثلتها قول الشاعر:

- قصد اليأس.
- هززت إليك العتاب.
- لم يدر قلبي.
- عنان الغزل.

وذكر من الصور البيانية التشبيه -أيضاً- في قوله:

- كأنك ناظرت أهل الكلام.

وما اختياره للصور البلاغية كالاستعارة، والتشبيه، إلا ليضفي على قصيدته جواً من الخيال يزيدها روعة وجمالاً واستحساناً.

وإلى جانب البيان فقد زخر النص بالمحسنات البديعية من مثل: التصريع في البيت الأول، والطباق في قوله:

- اليأس، الأمل.
- الريث، العجل.
- عمداً، زلل.

والتضمين في قوله:

- يهب الريث بعض العجل، هو تضمين للمثل المشهور "رب عجلة تهب ريثاً"[7]
- مكره لابطال، تضمين للمثل المشهور: "مكره أخاك لا بطل"[8].

لم يكن اعتماد الشاعر على فنون البيان والبديع في قصيدته تكلفاً وتصنعاً، وإنما لتفيد التجسيد والتجسيم وتثبيت المعنى الذي يريده الشاعر.

" ومن يتوسع أكثر في دراسة ظاهرة الصور في شعره يجد أن هذه السمة هي التي منحت شعره شيئاً من الخلود، إن لم نقل كل شيء، إذ جعله شعراً فنياً أكثر منه ذاتياً وجدانياً"[9].

ولعل ذلك هو السبب في أن القارئ يطرب لشعره في أي زمان، وفي أي مكان، ولعلها الصفة التي جعلت شعر ابن زيدون في الهوى شعراً ذا نكهة إنسانية عالمية.

الخاتمة:

من خلال هذه الدراسة والتحليل لهذا النص توصل الباحث إلى النتائج التالية:

- التناسق في كل شيء. التناسق في الألفاظ، والمعاني، والإيقاع.
- ثقافة الشاعر الواسعة وغزارة علمه والذي يشير إليه استعاراته لمصطلحات علم الكلام والجدل.
- استطاع الشاعر أن يجسد لنا ما عاشه ورآه من شجون وشؤون.
- الغنى الواضح في معجمه اللغوي.

لابد من القول أخيراً: إن هذه الدراسة ليست مقياساً، وليست طابعاً لا يمكن تجاوزه، وإنما هي نموذج وحسب قد يروق للكثير من الدارسين، وربما لا يروق لغيرهم.

تقف بنا الدراسة عند هذا الحدّ تاركة للدارس المجال لمزيد من الغوص في مكامن النص لاستخراج المخبوء فيها.

قائمة الهوامش والإحالات:

* ابن زيدون، هو أبوالوليد أحمد بن عبدالله بن زيدون، ولد بقرطبة عام 394هـ ينظر في الأدب الأندلسي، جودت الركابي، الطبعة الثانية، عام 1966، دار المعارف، مصر، ص 163.

(1) ديوان ابن زيدون، تحقيق: محمد سيد كيلاني، الطبعة الثالثة، سنة 1956، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي وأولاده، القاهرة، مصر، ص67.

(2) ينظر لسان العرب لابن منظور، قدم له: عبدالله العلايلي، بلا طبعة، سنة 1988، دار الجيل، لبنان.

(3) ينظر في الأدب العربي الأندلسي والمغربي، على دياب، بلا طبعة، سنة 2002، مطبعة المحبة، جامعة دمشق، ص153.

(4) مقدمة لدراسة الصورة الفنية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، نعيم اليافى، 1982، ص155.

(5) في الأدب العربي الأندلس والمغربي، مرجع سابق، ص161.

(6) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، عبدالله الطيب، الطبعة الثانية، سنة 1970، دار الفكر للطباعة والنشر، ص495.

(7) مجمع المثال- لأبى الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني، الطبعة الثانية، بلا سنة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، مج1، ص 145.

(8) المصدر نفسه، مج2، ص70.

(9) في الأدب العربي الأندلسي والمغربي، مرجع سابق، ص163.